غرام ابن العمدة

تحت حماية السلطة العسكرية

آلام دفينة

فى اليوم السادس من شهر اكتوبر عام ١٩١٧ تلقى أحمد افندى عثمان من ذوى الأملاك باحدى قرى مركز هيا شرقية إشارة تليفونية « خصوصية » من هيا إلى البندر لمقابلة صديقه ابراهيم أفندى رأفت لأمر خاص « فى غاية الاهمية »

كان الشاب أحمد عثمان من « سواقط الكفاءة » على جانب لا بأس به من الذكاء الفطرى ، وكان أبعد أترابه عن التشاؤم خصوصا وهو حينئذ على أعتاب الزواج من فتاة يحبها ويتعجل الظروف ليهنأ بقربها . فلما تلقى الاشارة التليفونية من صديقه الحميم - رأفت افندى - توقع من ورائها أنسا وابتهاجا - شأن كل اجتماع يأمه أمثاله فى بنادر المراكز . . .

لهذا بادر الى أسرع الدواب فامتطاها وما هى الا سويعة حتى وصل الى البندر وهناك فى أحد حوانيت « المانيفاتورة » حيث كان صديقه بانتظاره التقيا وتعانقا بشغف وانتحيا ناحية ثم بدأ أحمدأفندى صديقه بالسؤال عن تلك المسألة التى سماها فى اشارته - أمرا فى غاية الاهمية - ؟!

فتبسم رأفت افندى ابتسامة خفيفة تلاشى أثرها سريعا عن وجهه ثم اعتدل فى جلسته واخذ يداعب شاربيه فى شىء من الاهتمام وفى شكل من يتحفز لهجوم خطير ثم قال . « يا أحمد افندى . . هل تشك فى اخلاصى ؟ أولا تثق بصحة ما أقوله لك فى كل موضوع تحدثنا بشأنه قبل الآن ؟ » « اثق بك من غير شك فماذا تريد أن تقول اذن ؟ » . . « أريد أن أقدم اليك نصيحة خالصة تتعلق بحياتك ومحبتك الثمينة التي هى عندى أجل من كل شىء سواها وأنى مع الالم الشديد أسوق اليك خبراً قد تتألم عند سماعه لاول مرة ، بيدأنك اذا أمعنت النظر فيه بهدوء وبغير ان تملك الغضب نفسك قد تنجو من أحبولة نصبها لك أحد الافراد ممن لا تشك مطلقا فى نذالتهم وسقوط

اخلاقهم وسوء سمعتهم . فاذا قارنت بين أمرين ساعرضهما عليك . واذا قارنت بينهما تحت ضوء الحكمة أمكن أن تعرف قيمة كل منهما ، وأمكنني بعد ذلك أن أخطو الخطوة الأولى فى طريق انقاذك من خطر محقق »

هنا ثارت الشكوك فى نفس الشاب فى كل ناحية من نواحى حياته واستعرض أمام مخيلته ماعساه أن يكون قد اقترفه من خطأ ضد ذلك (الفرد) النذل الساقط الاخلاق السيء السمعة فلم يذكر اساءة واحدة . فبادر صاحبه بالسؤال عن ذلك الذى يعنيه وتابع سؤاله قائلا :

ــ أراك قد فرضتني ذبابة لا يأنف أحد من قتلها وصورت لى ذلك العدو السافل بصورة تجعلنى أسألك عن أمر هذه المؤامرة التى تحكم بنتيجتها الخطيرة حكم الواثق المطلع على بواطن الامور ، فهل لك فى زيادة الايضاح بصراحة وجلاء من غير ان تستعمل الكنايات والاحاجي ؟ ؟

فقال رأفت افندى ـ

. تعلم ياصديقى أن لك أختا على جانب عظيم من الجمال الذى لا أفشى سرا اذا قلت لك أنه ربما كان السبب الوحيد فى كل هذه المؤامرات ـ ثم تعلم أن خليل سليمان وحيد عمدة بلدكم طالما فاتح والدك فى أمر ز واجه من أختك فلم يجبه الى ماطلب ، وأنه وان كان سيء السمعة كما أشرت سابقا الا أنه يستطيع الآن بكلمة واحدة أن يرسلك إلى حيث لا أمل فى الرجعة ، فأمامك أحد أمرين ـ اما ز واجه من أختك ـ وإما ... (فقاطعه أحمد قائلا ـ وإما حياتى أليس كذلك ؟ ؟) فتابع صديقه ـ ليس مؤكدا أنك تموت هنا بيده وانما أريد أن أقول أنك ربما تموت متأثرا بالآلام لم تعتد حملها أبدا » فاستشاط احمد غيظا وقال « كيف يتم ذلك ؟ وهل ارسالى إلى ذلك الجحيم ـ الذى تهددنى به اصبح الآن تحت اشارته وفى متناول يده ؟ ؟ »

فاجاب صديقه ـ نعم وأؤكدها لك . وأرى أن الحدة الان لا تفيدك مطلقا بل الواجب أن تعلم أن ابن العمدة أتفهم ما أعنيه بقولى ـ ابن العمدة ـ ؟ أتفهم ذلك جيدا ؟ ؟ نعم يجب ان تعلم ان ابن العمدة يستطيع ان يخرجك من القطر المصرى باشارة بنان أو حركة لسان . . افهمت الآن ؟ ؟

ـ آ . . . ه . . . اخشى ان اكون قد فهمت . . وفهمت جيدا على ان الحق الذى

اريد ان اصارحك به هو انك ضالع فى هذه المسألة بقسط كبير فانى لا اجهل ان أختـه ـ الوارثة مقدما ـ تملك عليك قلبك ، مع أنه قد سبق لى أن أخبرتك أنها خطيبتي ـ برغم أنف أخيها فقط ـ وبملء الرضى من ذويها . وما امتنعنا عن قبول زواج أختى من ذلك السافل الدنس الا بعد أن وافق أبوه ـ العمدة ـ على الرفض واستطيع أن أقول إنه هو الذى بدأ بعدم الموافقة لسوء سلوك ولده ، فاذا أردت مصلحتي حقيقة فاضرب صفحا عن الدسائس التى يراد بها عرقلة عقد زواجى من أخته ولك بعد هذا أن تختار زوجا أخرى تكون واياها على وداد ووفاق . . والا فكفانى عذرا أن أصرح لك بهذه الحقيقة التى كانت كثيرا تثير الشك فى نفسى من جهة حسن نيتك فى أساس الصداقة بينى و بينك . . .

فأجابه فى حدة واستخفاف ـ كفاك ياهذا غرورا واتهاما لى فماذا تزعم أنى أستفيده من صداقتك التى تمن بها على مثلى ؟ . ماهى الفائدة التى تأتينى من صلتي بك ؟ وعلى كل حال فارجوك أن تنسى أن أخت خليل تهواك . فانها على العكس من ذلك تكره أن ترى وجهك برغم استعدادكم لحفلة العقد وما تشأ تودد أهلها اليكم الا بتوصية خليل نفسه الذى يريد بأية وسيلة أن يكون له حق دخول منزلكم عند أى مناسبة . . وفى أى وقت . ولسوف ترى حين لا ينفع الندم وترى أى انسان ترميه بالدس والخيانة وتزعم أنه يواخيك لغاية فى نفسه .

وقف احمد فى أنفة وسخرية وهو يقول لصديقه الامين «الى الملتقى يا أخ وليكن مايمكن أن يكون

* * *

فى لجنة السلطة العسكرية بالمركز

« هذا الشخص لايكون فى البلد و يمكننا أن نظفر بنفر نقدمه للسلطة فانه يحرض الناس على الثورة ، وأبى رجل طيب لايعرف لؤم هذا الماكر الخبيث »

كان هذا آخر ماقاله خليل ـ ابن العمدة ـ لكاتبين هيا فى مكتب السلطة ببندر المركز فى مساء ١٩ اكتوبر سنة ٩١٧ وعلى ذلك خلا الكاتبان بأحد ضباط المركز ثم استقر رأيهما على أمر افترقا على وجوب تنفيذه

فى البلده

عاد احمد الى القرية تتضارب فى رأسه الظنون ثم توجه توا الى منزل العمدة وهناك حدث زوجة العمدة بما دار بينه وبين صديقه رأفت افندى وهو الذى يزاحمه فى بنت العمدة فطمأنته وعرفته أن خليلا طائش لا يهم كلامه - أما خطيبته فهى لا ترغب فى سواه ، وليس لخليل رأى فى موضوعها . فانصرف مطمئنا وتوجه الى منزله حيث كشف الموقف أمام أسرته وأحاطها بما دار بينه وبين حماته زوجة العمدة

* * *

بعد تلك المحادثات بايام ، وبعد أن قام والد احمد افندى ببعض اجراءات الزواج ثم عقد العقد ذهب احمد تمهيداً لذلك لتوزيع رقاع الدعوة على بعض أصدقاء عائلته فى بندر المركز ، وقام فعلا بتوزيع أكثرها وبينا هو يجتاز أحد الشوارع اذا انقض عليه رجلان - خفير نظامى مصرى وعسكرى مصرى أيضا - وقاداه عنوة الى وكالة كانوا يحشدون فيها « أنفار السلطة »

وفى لحظة تلاشى صياحه بين ضجيج الآخرين ، ووضع اسمه فى قائمة « المتطوعين » الذين كانوا يقادون مرغمين . وقليل منهم فى ذلك الوقت من كان يتطوع بارادته . ولقد دخل العريس « بملاحقه » التى كانت تحمل بشرى الانس والسرور - دخل « وكالة » المسوقين الى الميدان الحربى فى فلسطين فكان الموقف عجيبا و أليما فى وقت واحد .

وطير الخبر الى القرية ولكن بعضا من الناس كانوا - ذرا للرماد فى أعين أهل الاسير - ينفون الخبر وهم يريدون بذلك تأخير النجدة عن العريس ولو بضع ساعات .

وقامت ضجة فى القرية خف على أثرها العمدة مع أبى « العريس » فتوجها إلى المركز وعبثا حاول ايصال حقيقة المسألة إلى ذهن الكاتب أو المأمور . وأخيرا استقر رأيهما على الحضور الى مصر لمخاطبة المسئولين ورجائهم فى اخلاء سبيل المتطوع ! ولو ببدل نقدى ، وقد كانت النعبئة للسلطة فى أشد نشاطها على أساس الضرورات الحربية وكان الطلب من دفاتر الميلاد ، وكانت الاحكام العرفية تحمى

أكثر من هذه الحادثة .. كل هذه الاعتبارات كانت سببا فى اخفاق الرجلين عندما حاولا استنقاذ « العريس » فتوجها توا إلى مصر .

* * *

وفى الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم الذى توجه فيه العمدة إلى مصر كان القطار ينهب الارض بانفار السلطة إلى القنطرة وبين الانفار المنكودين العريس السيء الحظ ينظر فى دهشة وارتباك بين بكاء الباكين وعلى ضجة العجلات الى الشمس فى الشرق وقد أرسلت خيوطها الوهاجة على كثيب شاسع والقطار يأخذ فى سيره الحثيث جادا فى ابعاد الحبيب المحبوب عن ديار من يهوى ، وقد مرت أمام المسكين محطة التل الكبير بسرعة ثم توارت فى غلائل البعد . وتوارى مع هذه المحطة آخر أمل للعريس فى النجاة واستسلم المسكين لقضاء الله وترك الاقدار تفعل أفاعيلها . وكان يجنح إلى البكاء اذا جن الليل ويتصنع الثبات وهو واهى الجلد

* * *

« بين الاثيمين الخائنين »

رأفت (بحدة) ـ كنت أظن انك أكثر نفوذا على أسرتك من هذا ولو لا ذلك لما ساعدتك على ابعاد احمد ليخلو لك الجو مع أخته مالكة لبك ولأجل أن تخلو باختك فتعمل جهد المستطاع لحملها على الطعن فى صحة وكالة والدها عنها فى العقد مع بلوغها سن الرشد . وتريد اليوم أن تقول لى انك لاقيمة لرأيك فى موضوع أختك ؟؟ هذا كلام لا يعقل !

خليل ـ وماذا عاد على من المنفعة بعد أن زاد نفور أهل التى تذكرها منى بسبب ابعاد ابنهم وقاطعونى مقاطعة تامة بعد ان كنت اجد فيهم شيئا من الرثاء ؟ دعنى اذن أناجى حظى العاثر ولا تكثر على سمعى هذه النغمة ، فلعنة الله على الحب اذا كان لا يتم إلا بالجريمة أما كفانى غضب والدى ووالدتى وأهل القرية ؟ قاتلك الله ! ان أختى تبكى ليلا ونهارا لشدة وقع الخبر عليها فهى لن تفكر فى غير من أحبته ولا تهمها ثروتك بجانب وداعة أخلاق عريسها فاذهب إلى أى مكان شئت ودعنى من هرائك الممل فانى نادم

شروع فى جناية

وصل إلى النيابة فى مساء ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٧ بلاغ جاء فيه «بينما كان عمدة . . عائداً من لجنة الشياخات إلى بلده اذ أطلق عليه مجهول عيارا ناريا كاد يقضى عليه لولا أن أخطأته الرصاصة سنتيمترا واحدا فنجا بأعجوبة . وهو يتهم ابراهيم رأفت ويقرر أن بينهما عداوة بأسباب عائلية »

فى المستشفى الانجليزى

هذا مريض بائس تنهشه الحمى وقد بات قاب قوسين من الهلاك ، وقد وفد عليه فى سريره لجنة من الاطباء قرروا اعطاءه الحقنة الاخيرة فأما . . وأما . .

ثم وقف المرض وبدأ المريض يفهم ماحوله ويذوق طعم الماء ، وينعشه الهواء الذى يهب على شاطىء القنال حيث تتهادى البوارج البريطانية الضخمة بألوانها المختلفة

ثم تماثل المريض للشفاء وصدر الامر باعادته إلى بلده لعدم اللياقة طبياً للعمل وفى صباح أحد أيام باكورة عام سنة ١٩١٨ كان القطار الابيض يعود فى هدوء وينساب كالافعى على شريطه قاصدا الزقازيق والعريس يطل من القطار على تلك السهول الصفراء ويكاد يطير إلى بلده لولا عدم الاجنحة

امام محكمة الجنايات

نظرت القضية وبعد المرافعات صدر الحكم على رأفت بالسجن سنتين ونصف مع الشغل وعاد أهله من الزقازيق فى صباح وعويل

فى محطة هيا

كان منظراً بديعاً ذلك الذى شهدته محطة هيا فقد نزل أهل رأفت من القطار بين ازدحام تطير فيه أصوات النساء ، ونزل العريس من القطار نفسه يتهادى بين أبيه والعمدة والرئاب الانيقة تنتظرهم والقرية تكاد تكون فى عرس عام

وبعد قليل قام مهرجان زواج العريس وتوافد عليه المدعوون من كل جانب ، فكانت بهجة وكان لقاء بعد اليأس ، وما أحسن اللقاء بعد اليأس

وفى هذه الساعة كان رأفت يرسف فى أغلاله رهن إشارة السجان...

محمد عبد الجواد السكرى